المقتطف

الجزء السادس من المجلد السادس والاربعين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩١٥ — الموافق ١٨ رجب سنة ١٣٣٣

صناعة الحرب وصناعة الطب

في العربيَّة كتاب من انفس الكتب وهو كتاب « عيون الأنباء في طبقات الاطباء » لمؤلفهِ موفَّق الدين ابي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة من علماء القرن السابع واطبائهِ المشهورين . ولد بدمشق ودرس الطب فيها وفي القاهرة وجُعل طبيباً لمارستان في القاهرة سنة ٦٣٤ هجرية وعمرهُ ٣٣ سنة ثم عاد الى دمشق في السنة التالية وانتقل الى صرخد واقام عند مالكها الامير عز الدين ايبك المعظمي وألَّف فيها كتابهُ هذا سنة ٦٤٣ وتوفي بها سنة ٦٦٨ . والظاهر انهُ اختارها ليتقطع فيها لتأليف هذا الكتاب وتنقيحهِ فجمع فيهِ تاريخ الاطباء الى عهدهِ من اليونان والرومان والسريان واليهود والهنود والفرس والعرب من وثنيين واسرائيليين ومسيحيين ومسلمين ومدح من يستحق المدح منهم منصفاً غير متشيِّع لقريب او متحامل على بعيد مهما كانت الاجناس والاديان كأنهُ نظر الى الجوهر الانساني المجرَّد غير حاسب لاختلاف البقاع والاجناس والمذاهب حساباً مع انهُ كان في عصر الحروب الصليبيَّة التي بلغت فيها العداوات الجنسيَّة والدينية اشدها . ولم يكتفِ بتفصيل حلل الثناء على مستحقيهِ من الاطباء حسب طبقتهم في صناعة الطب مسلمين كانوا او مسيحيين او اسرائيليين او وثنيين وعرباً كانوا او عجماً بل أيَّد حجتهُ بما اثبتهُ من مدح الخلفاء والعلماء والشعراء لهم وبما رواهُ عن اعتمادهم عليهم في تطبيبهم وتطييب عيالهم . ذلك ومؤرخو عصرهِ لا يذكرون من مخالفهم في الجنس والمعتقد الاَّ نعوتهُ باقبح النعوت . ورجال الحرب في عصرهِ لم يكن لهم شغل شاغل غير الغارات والغزوات والقتل والسلب واذا مدحهم شاعر فاكثر ما يذكرهُ من محامدهم اتخانهم في اعدائهم

وتاريخ الانسان سلسلة متصلة من العداوات تسفك فيها الدماء وتقطع الاوصال وترمل النساء وتيتم الاطفال . وقد يأبى احد الاشتراك في غمراتها حتى رجال الدين المقطوعون لعبادة الخالق يستعين كلٌّ منهم بالمه ويستنجده على خصمه الا الاطباء فانهم يترفعون عن ذلك كله ويعملون على ضده . يبادرون الى حومة الوغى لمعالجة الجرحى من قومهم ومن خصومهم على حدّ سوى . وهنا يقف الباحث في تاريخ البشر ويتنفس الصعداء لانهُ يرى بين الشرور المتفاقمة اثر الرحمة والحنان وبين الظلمات المدلهمة اشعة نور تنير طريق الانسان

عاش الناس دهوراً كثيرة يتنازعون البقاء يغزو بعضهم بعضاً ويعتدي بعضهم على بعض الى ان تعلموا بالاختبار ان المسالمة اسلم لهم والسعي والجد اربح من السلب والنهب . لكن الخُلق القديم لم ينزع من فطرة الانسان . فما دام السلم باسطاً رواقهُ ولا محرك للعداوات ترى اهل الوطن الواحد يعامل بعضهم بعضاً كالاخوة فلا يعتدي احدهم على الآخر ولا يهضم حقوقهُ وان فعل عُدّ مجرماً وعوقب عقاب المجرمين . والمجرمون قلائل في كل امةّ لا يزيد عددهم على واحد او اثنين في المئة . ففي القطر المصري مثلاً ١٢ مليوناً من النفوس ولم يزد عدد المسجونين في سنة من السنين على ١٢٠ الفاً اي واحد في المئة . وفي ايطاليا ٣٥ مليوناً ولم يزد عدد المجرمين فيها على خمسين الفاً وفي اليابان خمسون مليوناً وعدد المجرمين فيها اقل من مئة الف

ويبقى ذلك كذلك ما دام ابناء الوطن الواحد او الدولة الواحدة متفقين غير منشقين ومتعاضدين غير متخاذلين ولكن اذا نشبت بينهم العداوات ديست الحقوق المشتركة وحارب بعضهم بعضاً كالاعداء واستحلّ دمهُ وعرضهُ ومالهُ لان الطبع الوحشي لم يتلاشَ من الانسان . ولقد كان ذلك شائعاً في العصور الغابرة لكنهُ قلّ الآن في البلدان المتمدنة وآخر ما حدث منهُ في عهدنا حوادث سنة ستين في بلاد الشام والمذابح في بلاد الارمن والحروب الاهلية في الولايات المتحدة وايران والبرازيل والمكسيك

وكما يعامل المرء جارهُ وابن بلده وابن وطنه في زمن السلم يعامل غيرهُ من ابناء الاوطان الاخرى فلا يعتدي مصري على هندي ولا ايطالي على الماني ولا فرنسوي على انكليزي بل يراعي كلٌّ منهم حقوق غيره من سائر الامم كما يراعي حقوق جاره وابن وطنه . والذين يعتدون على غيرهم من ابناء الاوطان الاخرى في زمن السلم قلائل جداً اقل من الذين يعتدون على ابناء وطنهم . ولكن اذا تخاذلت الدول نشبت الحروب بينها وديست الحقوق والمعاهدات وعاد الانسان الى طبعه الوحشي فاستحلَّ القتل والسلب والنهب وصارت هذه الفعال التي تعدُّ في زمن السلم موبقات يعاقب الانسان عليها محامد يذكر بها ويجازى عليها

اقرإِ التلغرافات اليومية والبلاغات الرسمية عن هذه الحرب ترَ القواد الكبار اذا ارسلوا بشرى الى ابناء وطنهم بنوها على عدد الذين قتلوهم وجرحوهم واسروهم وعدد المدافع التي غنموها منهم مفتخرين بذلك كلهِ متباهين بهِ كأَنهُ لا يخطر ببالهم انين الجرحى وبكاء الثواكل والارامل. ولا يعطى جندي شاناً لانهُ انقذ آخر من الموت حتى يعطى عشرة غيره نياشين لانهم فتكوا بكثيرين فتكاً ذريعاً

وقد تكون الحرب ضربة لازب في بعض الاحيان لتوطيد السلم او للنجاة من الظلم او التخلص من الذل ولكن مهما كانت الغاية التي وراءها فان ويلاتها تبقى ويلات وآلامها تبقى آلاماً لانها لا تخرج عن كونها وسيلة وحشية ورثها الانسان من اسلافهِ الاولين وزادتها العلوم والفنون العصرية فتكاً ونجحاً. كان غرض المتفننين في اتقان المدافع والبنادق منذ بضع عشرة سنة ان يشلُّوا بها ايدي الخصم ويمنعوهُ من الاستمرار على الحرب كأن يدكوا حصونهُ ويجرحوهُ جروحاً تشل يديهِ ولكنها لا تميتهُ لجاؤوا الآن باساليب جديدة تكسر العظم وتمزق اللحم فان لم تخطف انفاس الجندي حالاً خطفتها بعدما يتألم آلاماً مبرحة او ابقتهُ عليلاً مدى العمر. ولم يقتصر شرها على المحاربين ولا على المتقاتلين بل اغتالت المطمئنين في بيوتهم من النساء والاطفال والقت الرعب في قلب كل احد حتى لا يدري من اين تنقض عليهِ سهام المنايا أمن يمينهِ ام من يسارهِ او من السماء ام من تحت الثرى

فلماذا طمى هذا الشرّ الجارف ولماذا لم يشترك الاطباء فيهِ. السبب واضح في رأينا وهو ان اساتذة العلوم التاريخية والاجتماعية في المدارس الالمانية جعلوا يمجدون القوة الوحشية وينادون ببقاء الاصلح حسب مذهب النشوء وفسّروا الاصلح بانهُ الاقوى بدناً والاوسع حيلة الذي يستطيع ان يتغلَّب على غيره في جهاد هذه الحياة. فانزلوا الشفقة والرحمة عن عرشيهما ونصبوا مكانهما القوة والحيلة. واما اساتذة الطب فبقوا على خطتهم من عهد بقراط الى الآن يعلّمون تلامذتهم انهم مسؤولون لدى الهم وضميرهم والعمران عن كل مَن يحتاج الى معارفهم الطبية وان شرفهم وشرف صناعتهم مرتبطان بقيامهم بهذا الفرض المقدّس فاذا رأَوا جريحاً في حومة الوغى لم يخطر ببالهم ان يسأَلوا عن اصلهِ وفصلهِ ولا عن كونهِ صديقاً او عدوًّا وانما انحصر بحثهم في كيف يخففون آلامهُ ويواسون جراحهُ ويبعدونهُ عن مواقف الخطر

فان كان التعليم قد تغلَّب على الطباع الوحشية في فريق من الناس أَفلا يمكن ان يتغلَّب عليها فيهم كلهم او في الجانب الاكبر منهم. أَوَليس في الامكان ان يعمل الناس بهذه الحقيقة ويقبضوا العمل بها الى تقليل الكسب من الحروب وتحقير مثيريها ووضعهم مع القتلة

واللصوص في صف واحد . فان كانت الحروب الماضية لم تقنع الناس بالمبادرة الى ذلك فلا يبعد ان يروا في الحرب الحاضرة اكبر مقنع

آراء الاطباء في بعض العادات

وجّه صاحب مجلة الستراند الانكليزية ستة اسئلة الى جماعة من اطباء الانكليز ليجيبوهُ عنها وينشر اجوبتهم في مجلتهِ لمنفعة الناس . اما الاسئلة فهي (١) ايفرط الناس في الاكل (٢) ايفرطون في النوم (٣) ايفرطون في الرياضة البدنية (٤) هل يمكن ان يزيد الهواء المطلق على ما يقتضيهِ الجسم (٥) هل التدخين مضر (٦) هل من قاعدة ليس لها علاقة بالامور المتقدمة تشير بان يراعيها الناس اكثر مما يراعونها الآن

السؤَال الاول — ايفرط الناس في الاكل — اجاب السر جيمس جودهارت عن هذا السؤَال ان الرجال في الغالب يأكلون اكثر مما يجب ان يأكلوا اما النساء فكثيرات منهنَّ يأكلن اقل مما يجب . ويصدق ذلك على كثيرات من نساء الطبقة الوسطى والطبقات العليا ولاسيما اذا كان عليهن تدبير بيوتهن وتحضير الطعام لعيالهن

واجاب الدكتور نيدهام ان الناس يأكلون اكثر من حاجتهم ولاسيما من اللحم

واجاب الدكتور صليبي ان اكثر الناس من غير الفقراء يأكلون اكثر من حاجة اجسامهم ولا ينال اولاد الفقراء ما يكفي لاجسامهم من الاطعمة اللازمة لهم وان صحة الناس عموماً تتحسن اذا اعطي صغار الفقراء ما يأكلهُ ذوو اليسار فوق حاجتهم

واجاب الدكتور كلارك انهُ لا يعتقد ان الناس يأكلون اكثر مما يلزم لهم . ويستحيل على الانسان ان يحدد مقدار طعامهِ فيجعلهُ على قدر ما يحتاج اليهِ جسمهُ في نموهِ وتعويض ما يتدثر منهُ من غير زيادة ولا نقصان . ولا بد من زيادة الطعام على حاجة الجسم عادةً . والقابلية غير مقياس لمقدار الطعام اللازم . فاذا كانت قابلية المرء تدعو الى اكل ما يزيد على ما يقدر الجهاز الهضمي ان يهضمهُ لم يصعب عليهِ ان يوفق بينها وبين هضمهِ

واجاب الدكتور روبرتسن ولس ان اهل الطبقة الوسطى يأكلون اكثر مما يجب ان يأكلوا . وقد عرفتُ بالاختبار ان بعض ذوي اليسار الذين لا عمل لهم يولعون بالاكل حتى لا يهتموا بغيرهِ ويأكلون كثيراً مع ان اجسامهم لا تحتاج الاَّ الى قليل من الطعام لقلة حركتهم . فامثال هؤلاء لا تنتفع اجسامهم بالطعام الزائد عن حاجتهم بل تتضرر بهِ ويصابون بالامراض